رمزية العدد في الفكر الشعبي بين المقدس والمدنّس

تحديد دلالات بعض تجلياته من خلال المثل والحلم والحكاية الشعبية

الطالب الباحث: **ماحي عبد اللطيف**

قسم الثقافة الشعبية

المقدمة

نسعى من خلال هذه المحاولة إلى تقديم تحديد عينة من معاني ودلالات بعض الممارسات الدينية والشعبية المتداولة من طرف العامة والتي يتجسد فيها مفهوم العدد.

وتقودنا في هذا المحاولة الفرضية الآتية المتمثلة أساسا في استمرار الممارسات بالعدد وكذلك الاعتقاد بما وُضع له من معان والتي هي أقرب إلى الخفاء والغموض منها إلى التجلي والوضوح.

في البدء نقول أن الإنسان استحق الخلافة في الأرض بما أوتي من مراتب عقلية وروحية ومادية، وهذا الوجود المفكر جعله يتدرج في التحرر من المحسوس إلى المعقول، فبدأ يتدبر الموضوعات وينظر إلى ما حوله...فكان بذلك أن أبدع الكتابة وسمى الموجودات ووضع الأرقام أو الأعداد وأصبح لهذه الأخيرة – بعد أن مارسها واستعملها في العد والحساب والبناء والاقتصاد — معان ومفاهيم عملية. وإننا لنجد تأكيدا لهذا الكلام الذي يدل على شدة ارتباط عقل الإنسان الأول بالناحية المادية من الحياة فيما قاله هنري برغسون الفيلسوف الفرنسي:" إن جزءا من عقولنا نشأ لكي يمارس إدراك الأجسام المادية، فاكتسب من هذا المحيط المادي أكثر تصوراته."[1] وإذا كان الأمر كذلك، فإن الإنسان تدرج في حياته وارتقت فيه قواه واستعداداته ، و عن هذا أصبح يرمز ويسمّي. وهذا الوضع الذي أصبح فيه جعله في احتياج إلى الرمز للتعبير والإشارة.

دلالات العدد تاريخيا

لكن إذا كان الإنسان في القديم قد وضع العدد وشكل صورته بصورة أو بأخرى، فما هي الدلالات والمعاني التي منحها له وصار يستعملها ويعتقد فيها ؟

انتهى الإنسان القديم إلى العدد، وقام بالربط بينه وبين الأشياء التي يتكون منها محيطه ، وهذا الربط أوجدته الضرورة وأدت إليه الحاجة.وتاريخ العدد وتطوره يذكران لنا كيف أنه نما – كرسم وكرمز وكمعنى – من غير أن يتجاوز الممارسات الثقافية والاجتماعية والنفسية والفكرية التي كانت تسود تلك المجتمعات ويخضع لها أفرادها. وهناك أمثلة دالة على هذا: فالهنود الحمر القدامى في أمريكا حددوا العدد ودلالته مما كان يحيط بهم؛ لقد استخدموا الضفدع والأنف ليدلان بهما على التوالي على الرقم واحد والرقم إثنان...[2] ، وعند المصريين ارتبط العدد بالأمور الحياتية وتحددت دلالته ووظيفته باللغة، فلم يكن " إلا ضربا من العمل وليس أداة عاكسة للفكر "[3] ، وتقريبا نجد نفس الضرورة الحياتية المرتبطة بالمجتمع عند البابليين والسومريين وراء العدد ومعانيه...فالظروف الثقافية والاجتماعية والفكرية والنفسية وكذلك الحاجات القريبة، سجَّلت حضورها في تشكيل العدد وتحديد معانيه.[+]

لم يكن إذن ظهور العدد عفويا، ولم يتجاوز معناه أول الأمر، الحاجات الأساسية للإنسان التي كانت تتمثل في دوافعه القريبة، وفي كونه، أي العدد، صفة للأشياء على اعتبار أنه لم يكن مفصولا عما هو معدود. لقد كانت له دلالات مختلفة تتجسد في إشارة الإنسان إلى موضوعاته، وهي دلالات مصدرها التجربة الحسية والملاحظة.ورغم حسية الدلالة أو ماديتها، إلا أن العدد ومعناه تم تحويرهما وتهذيبهما فأصبح مفهومهما عمليا متحركا ودقيقا كذلك...

دلالة العدد في الخطابات الدينية

وإذا كان البعض قد جعل من العدد مبدأ الوجود ومعناه، فإنه كذلك، جعل منه رمزا يعبر صراحة عن رغبات الإنسان ودوافعه الخفية. أليس العدد كرمز إفصاح عن موقف من الحياة ؟

لقد اتخذ الإنسان العدد رمزا ليحل لديه محل شيء آخر غيره ويصبح بديلا ممثلا له.وعلى أساس هذا التحديد أصبحت له دلالة ثابتة هي رغبة الإنسان في إدراك الحقيقة والواقع.كما أن المعنى الذي وُضِع له طغت عليه الفردية فتعددت معانيه واختلفت باختلاف الأفراد والجماعات.ومع ذلك يلاحظ أن معانيه معنوية تهدف إلى إضفاء كيفيات معينة على ما يرمز إليه.

وتكرر العدد واستعماله، أي حضوره الدائم أحاله إلى درجة أعلى من الثبات والتأصل فحصل له بذلك ولاء الناس واحترامهم له ومن ثمة الخضوع له.يحصل هذا خاصة إذا كان للعدد صلة بالدين والمعتقد الذي "يتطلب استجابات بطرق معينة ."[5] من هنا يصبح العدد الرمز مثل السِّر أو الخافية التي تُرْعش وتُرجف وتسيطر على النفوس ومعناه يتحول إلى لغز لا تبلغه معرفة الإنسان.

استخدم العدد في الخطاب الديني اليهودي، وقد سعى أصحابه إلى كشف الروابط بين الكلمات بواسطة جمع قيمها العددية مع القيام بتباديل، وعن طريق الأعداد يحدد المعنى ! كما أنهم حمَّلوا الأعداد قوى تتمثل في قوى الأرواح الخيرة وقوى الأرواح الشريرة. ولهم كذلك تحديدات خاصة للأعداد وخاصة العشرة الأوائل منها.

وفي المسيحية، نال العدد الكثير من التقديس والتجلة. فهي الألبسة المرئية للموجودات وصورها الدالة عليها، وهو (العدد) خالد ولا يجب سوء استعماله، لأن الأعداد جميعها مشتقة من الواحد الذي هو الله. إن العدد أصبح عندهم يتمتع بقوة غير معروفة وعجيبة، ولنا في العدد ثلاثة المثل المبين[6]...

أما في الإسلام، فيجب الأخذ عند تحديد معنى العدد، السياق الذي ورد فيه وربطه بأسباب النزول ودلالات ألفاظ اللغة وغيرها. فالعدد في القرآن ساير حياة

الإنسان ويدل على النظام، وإذا وُجِد معناه متخفيا، فإنه فقط للرد على أولائك المتطاولين المجادلين.

وأما الصوفية أصحاب الكشف واليقين كما يوصفون ،فقد حمَّلو ا الأعداد أسرارا موسومة بالغرابة و الغموض، وهي عندهم " كناية وتلويح وإيماء لا تصريح "[7]، فهي شديد الخفاء من حيث المعنى وأنها "محاط(ة) بسياج من السرية"[8]، ولهم هم الآخرون كذلك تحديدات لمعاني بعض الأعداد التي أقل ما يمكن أن يقال بشأنها أنها غُلِّفت في الكثير من الأحيان بمسحة سحرية وبقايا وثنية وفكر سابق.

وهناك خطابات دينية وضعية تضمنت الأعداد وفيها تحديدات معينة خاصة...

بعض الطقوس المرتبطة بالعدد

والحديث عن العدد هو حديث عن ممارسات متعلقة به، إذ توجد الكثير من الطقوس والممارسات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

- إذا ضل أحد طريقه، فالتقليد يلزمه بأن يدور حول نفسه ثلاث مرات.
- المرأة العاقر حتى تنجب عليه أن تتحزَّم بسبعة أحزمة وتعلق إحدى هذه على شجرة بعد أن تدور عليها سبع دورات.
- مداواة المريض من الإصابة بالعين أو أي مرض بكمية من الملح ويدور بها على رأس المريض.....

والملاحظ أن كل هذه الطقوس والممارسات هي تجليات حاضرة لفعل تاريخي له أصول قديمة، بل يمكن القول بأنها مقتبسة من سكان مصر القديمة أو بلاد الرافدين الذين كانوا يعتقدون في الأعداد مثل العدد سبعة والعدد ثلاثة وغيرهما...[9]

وهذا التأثير نجده حاضرا حتى في الخطاب المعرفي القديم؛ فالفيثاغوريون وغيرهم من مفكري اليونان تأثروا هم كذلك ببقايا الفكر القديم. إن العدد في اعتقادهم هو المبدأ وهو الأصل، ومعرفة أسراره تؤدي إلى" معرفة سر الحياة وسر هذا الكون

العجيب"[10] ولهم تحديدات للعدد في هذا الإطار وكلها تدل على الأصل الرفيع الذي تعود إليه.

وما يمكن قوله بعد هذا أن استمرار الممارسات المتعلقة بالعدد دليل واضح على استمرار تأثير العقلية الشعبية الأولى ومن خلال العدد وسلطته على عقول الناس وعلى تكوين المعطى عن طريق أشكاله التي يظهر بها.

تجليات العدد ضمن أشكال التعبير الشعبي

وإذا كان العدد قد تمكن – بما أصبح له من قوة تأثير روحية وقوة على الفعل والتعبئة — من الإنسان، فمعنى هذا أن العدد لا زال حتى الحاضر يطبع تفكير وتصرف هذا الإنسان في حياته العملية. وقد تضمن بحثنا حديثا عن حضور العدد ضمن أشكال التعبير الشعبي كالأمثال والأحلام والحكاية الشعبية.

والمثل الشعبي المتضمن للعدد، باعتباره المرآة التي ينعكس عليها سلوك الأفراد والجماعات يلبي في جوهره رغبة ويسد حاجة ويدعو إلى سلوك ما. والمبدع الشعبي الذي وضعه، وحين استعان بالعدد، لم يتجاوز المعنى البسيط والمشترك الذي هو واحد عند الفلاح أو رجل الدين أو العالم أو المثقف...إن لغة المثل العددية تدل على النظام والضبط وتدعو إلى محاربة بعض السلوكات التي تسيء إلى الإنسان أو تضعفه أو تجعله يترل إلى مستوى أدنى من مستواه الإنساني.وباختصار فإن العدد في المثل يؤسس لنوع من القوة الرمزية التي تدعو الإنسان إلى حسن السلوك وضبط الغايات.

وفي الحلم يظهر كذلك العدد، والذاكرة الشعبية تتأثر بالحلم وتستند إلى تجلياته ظنا منها بأنه يمثل تنبؤا بالمستقبل وحدسا لما سيقع فيه. وإذا ما تم فك الأعداد المحتواة فيه،تمكن الفرد من ضبط سلوكه وفي الوقت نفسه معرفة فاعليته خاصة وأن الحلم مهما كان يمارس على الأفراد ضغطا حتى أنه يسمل عمل المنجم الذي يتنبأ بالمستقبل. وورود العدد في الحلم ما هو إلا لغة استعملت للتعبير وأن العدد فيه له معناه الموضوعي المحدد.

وأما في الحكاية الشعبية والتي هي مظهر من مظاهر الفكر الشعبي، لم يغب العدد، فقد استعملت فيها تحديداته السابقة.وقد لاحظنا تكرر عدد فيها حيث أنه شكل محورها وهذا يدعونا إلى القول بأن العدد مقدس كذلك في الحكاية الشعبية والدليل على هذا ورود أعداد معينة دون أخرى مثل العدد واحد والعدد اثنان والعدد ثلاثة والعدد خمسة وسبعة ومائة...وهذه الأعداد لم تُلبس في الحكاية الشعبية لباسا غيبيا أو إرواحيا، فصلته بواقع الأفراد وبيئتهم وظروفهم وبمستويات تفكيرهم ظاهرة للعيان.

بعض صور التقديس والتدنيس للعدد

في البدء ، قمنا بتحديد معنى المقدس والمدنس:

إن المقدس هو المطهر المبارك المتسم بطابع ديني والذي لا يجوز انتهاكه، وفي بحثنا فإننا قصدنا بالمقدس كل ما يتميز به أي موجود ويستلزم من الإنسان أن يقوم اتجاهه ببعض الطقوس عند تعامله معها أو اقترابه منها أو اتصاله بها وذلك لما تسبغه عليها المجتمعات والعقائد والثقافات من احترام ممزوج بالخشية والخوف.

والعدد لم يفلت من هذا التحديد خاصة وأنه يستعمل في مجتمع يتميز بغلبة الطابع الديني فيه على موروثه الشعبي . وقد حوَّل هذا البعد الديني الذي أصبح يتصف به العدد الكثير من السلوكات المتعلقة به إلى ثوابت حتى أنها أصبحت نمطا من السلوك المعياري الذي يجب أن يخضع له المجتمع والإنسان.

أما المدنس ويسمى كذلك بالدنيوي، فإننا نعني به الموجودات التي لم يعد يتخذ منها الإنسان موقف التقديس أو اللامساس أو أية تجلة واحترام. وبمعنى آخر، وفي إطار المقدس، تصبح الموجودات على اختلاف أنواعها موضوعات دنيوية لا يمنع من تناولها أو التعامل معها أو دراستها أي اعتبار أو تقدير لها.فالمدنس يمثل العقل في شكله الراقي الذي لا يتحرك إلا في إطار من الأسباب والنظم والقواعد.

وعلى أساس هذا التحديد للمفهومين، نقدم هذه الصور من صور التقديس أو التدنيس الذي عبَّر عنهما الإنسان بواسطة العدد، وهي صور مختزلة تتضمن دلالات مختلفة وُضعت للعدد وتتعلق كلها بمواقف الإنسان العملية:

- العدد صفر....0

قدسيته تتمثل في أن كل الأعداد تدور حوله، وأنه أحيط بهالة من الأسرار والجلال، وأن كل الشعوب تستعمله من غير تواطؤ أو اتفاق. يستخدم لدفع العين من الحسد..

أما دنيويته، فمما يستعمل فيه أنه يشارُ به إلى الإنسان عندما لا يسوى في نظر الآخر أي شيء، كما ربطت العامة بينه وبين الدائرة التي ترتسم حول القمر ليلا وما يحصل بعدها من سوء...

- العدد واحد....1

هو رمز الألوهية ودليل الصلاح والفلاح وعدم الهلكة، كما يفيد قيام الشيء وعماده. ويعتبر هذا العدد بمثابة الأساس الحيوي الذي يربط الوجود بمبدأ أعلى، ومن الدلالات التي وُضعت له الفطرة، والانفراد بالشيء والإنجاب...

أما دنيويته، فإنه يفيد المخالفة والسلب وعدم الطاعة، كما أصبح يدل على العلم والمعاملة والدقة وحسن التدبير وأن أحد أيام الأسبوع سمي به...

- العدد اثنان....2

في الفكر الشعبي، يفيد هذا العدد التقابل والاختلاف، ويرمز إلى الجنس والحياة، كما يشير إلى النظير، والجنة والنار والخير...

وفي المقابل يدل على الاتزان ويحضر في القضاء والمعاملات كما يرمز للحسد والتحقير...

- العدد ثلاثة....3

يدل على الطمأنينة والسكينة ويرمز إلى البركة ، كما أنه دليل على الجماعة و الصواب والموافقة الربانية...

أما دنيويته فتشير إلى الشرك والغواية وارتكاب الخطيئة وتنظيم غرائز الإنسان الغذائية، واستخدام البدو للأثافي الثلاثة عند إيقاد النار وإلى الدعاء بالسوء بواسطته...

- العدد أربعة....4

يشير إلى الكتب السماوية الأربعة ويدل على السلم والسلام (الأشهر الحرم) ويفيد معنى الذكر والورد والكثرة التي لا تحصى...

وفي المقابل يشير إلى الجهات الأربع وإلى طباع الشخصيات...

- العدد خمسة....5

من الاعتبارات التي له أنه يشير إلى أركان الإسلام ويشير إلى عماد الدين وإلى النجمة دليل العلو والسمو، كما يستعمل لدفع العين وهو اسم يوم من أيام الأسبوع...

ويدل من جهة التدنيس على الفوج العسكري وعلى أجنحة الجيش الخمسة وكذا قيمة الشيء...

- العدد سبعة....7

منح هذا العدد مكانة يتحدد بموجبها عدد الكثير من الأمور، فأبواب جهنم سبعة ، وحلم ملك مصر تضمن العدد سبعة ويؤمر الولد بالصلاة لسبع، ومعظم أركان الحج سبعة، ويرمز إلى مضاعفة الحسنة كما استعمل القرآن العدد سبعة مع السنابل ومع السموات الطباق...

وعلى النقيض نجده يدل عند النلاحين على السابعة ويدل كذلك على الاحتقار وعدم الفائدة وعلى سوء المنقلب وعلى عدد المحيطات وعلى المعادن الرئيسية وعلى ألوان الضوء وعلى مكونات الإنسان...

وهناك أعداد أخرى لها قدسيتها ولها كذلك دنيويتها.

الخاتمـــــة

إن الأعداد التي نالت اهتمامنا هي في تصورنا وضعت للعد والحساب، و لم يلبسها الإنسان الأول غير لباس عملي لا يخرج عن المفهوم الرياضي البسيط.لكن نتيجة تدرج وارتقاء الإنسان في الحياة، اكتسبت الأعداد مدلولات غير المدلولات الرياضية الأولى نتيجة غزو الفكر الأسطوري والسحري فكر الإنسان الشعبي الذي تغذى بمفاهيمهما بسبب من دهشته وانبهاره أمامهما.

ويلاحظ من جهة أخرى المرجعية الدينية لدلالات الأعداد من مسيحية ويهودية وإسلامية والى جانبها عادات وتقاليد وسحر الفكر الامازيغي و الفينيقي وغيرهما.

إن استعمال العدد ووصفه بأوصاف شتى وإعطائه مدلولات واستعماله في شتى مناحي الحياة، لم يرفع عنه تلك المسحة السحرية الغامضة.إننا نشاهد حتى الآن استمرار ذلك الماضي في الحاضر وعودته من جديد من خلال ممارسات ضُنَّ في وقت سابق أنها انمحت وأُزيلت.

الهوامش

[1]- ذكره نديم الجسر في : قصة الإيمان....

[2]- محمد هلال اليوسفي ورفاه قسوات، دروس في الرياضيات العامة المطبعة الجديدة ، دمشق1962/1961 ص94.

[3]- محمد رياض ، الإنسان دراسة في النوع والحضارة، دار النهضة العربية بيروت 1974 ص312.

[4]- يمكن الوقوف على هذا الحضور في الرسالة التي تقدمنا بها للحصول على شهادة الماجستير والموسومة بـــ ""رمزية العدد في الفكر الشعبي بين المقدس والدنيوي" كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، تلمسان.

[5]- أبو هلال، مقدمة إلى الأنثروبولوجيا التربوية، ط2، مكتبة النهضة الإسلامية، عمان 1979، ص165.

[6]- جيفري بارندار، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ت، إمام عبد الفتاح إمام مكتبة مدبولي، القاهرة 1996، ص 73.

[7]- أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة 1979، ص137.

[8]-دأحمد سليم سعيدان، مقدمة لتاريخ الفكر العلمي، عالم المعرفة الكويت، 1988، ص58.

[9]- يمكن في هذا الإطار مراجعة كتاب ميرسيا إيلياد صور ورموز.ت:حسيب كاسوحة دمشق سوريا 1998.

[10]- د أحمد سليمان سعيدان، ص60.